صفحتان من تاريخ الملاحة

قدماء المصريين والعرب

ان ضابطاً بحرياً من الضباط الفرنسيين يدّعي ان تحول السفن السبب في المدنية الغربية فيقول ان الانسان كان أول الامر راعياً متنقلاً حتى استقرّ في مكان فأقبل على الزراعة. ولكن الحضارة قديماً لم تنشأ الاّ عند ما وطّدت الملاحة السبل الى التجارة والصناعة

وقسم ذلك الضابط التاريخ الى ثلاثة اقسام : العهد القديم وعهد العصور المتوسطة والعهد الحديث وبعبارة اخرى : طور للملاحة في البحر المتوسط وطور الملاحة في المحيط الاطلنطي وطور الملاحة في المحيط الباسيفيكي . ولكل من هذه الاطوار نوع من الملاحة ففي الطور الاول كانت المقاذيف وفي الثاني كانت القلاع وفي الثالث الرتبات الميكانيكية

ولو اكتفى ذلك الضابط بهذه النظرية لما حدثناك عنه ولكنهُ ألف كتاباً ضخماً [1] أورد فيهِ صوراً عديدة للملاحة جمع فيها كل ما وقع منذ العهد القديم حتى اليوم فبدّ بحثه عن ما قبل التاريخ ثم انحدر الى الفينيقيين والاشوريين والمصريين واليونانيين والرومان والروم والدول الاوربية منذ ايام النهضة حتى اليوم وضمّ اليها اميركا واليابان في العهد المتأخر . وليس في وسعنا ان نذكر لك كل ما يضمه هذا الكتاب فلنجعل كلامنا على المصريين القدماء ولنتطرق الى تأثير العرب في ملاحة الغرب

(١) كانت السفن في المحل الاول عند المصريين لانها كانت ضمن المتاع الذي كان يزجّ في قبر الميت والمعلوم ان الميت كان في حاجة اليه لسفره الى ابيدوس . وكانت السفن الاولى من اغصان يشد بعضها بعضاً لها مقاذيف ومرساة وعليها حظيرة وقد انشئت السفن الخشبية واستعملت القلاع قبيل الاسرة الاولى . ومنذ العهد المنفيسي نشأت الرحلات والغزوات البحرية . وكانت بعض السفن في ذلك الحين موقوفة على المشاعر الدينية وبعضها على صيد السمك . ومما يحسن ذكره ان فن القذف (قذف الملاّح ساق القارب بالمقذاف) بلغ الغاية في عهد الاسرة الخامسة إذ شُدَّ المقذاف الى المركب ثم أرسل في الماء على حسب ما نعرفه الآن.

(١) Navires et Marins (chez Duchartre, Paris)

وقد قدم هذا النوع من القذف الملاحة ورمى بالمراكب الى البحر وجعل سيرها سريعاً

الا ان المصريين لم يكونوا على وجه الصواب في صناعتهم السفن لانهم كانوا يحملون الهيكل من الخارج الى الداخل امانة مفرطة فيضطرون الى ان يضيفوا الى اطرافه حبالاً مبرومة تمكنها وتشبّها لئلا تنقد السفينة توازنها . ومثل هذه الاضافة لا تجدي شيئاً بل تصيب مكاناً يذهب سدى . ولا شك ان المصريين فطنوا الى ذلك ولكن اتباعهم للتقاليد تغلب عليهم

(٢) لما انقطعت الصلة بين تقاليد الملاحة القديمة وبين الامم الاوربية بعد غروة الشمال لم تكن ملاحة ما الاّ عند الروم . فكان لبيزنطين سفن عديدة ومعرفة بشؤون البحر . وكانت السفن حين ذاك قائمة على القذف وكان رجالها بين قذافين وجنود وملاحين وكانت تحمل شبه قلعة يسكنها القواد والجنود ليرسلوا منها القنابل . ولم تكن عناية البيزنطيين باسطولهم قليلة الشأن . والسبب في ذلك ما كان بينهم وبين المسلمين من الحروب الدائمة . وكان للقرصان المسلمين ديار لصناعة السفن في تونس وفي مصر

وكانوا يمتازون بالنظام في المحاربة وبالفن . وقد كانوا جعلوا ارسال القنابل عن بعد بدلاً من الضرب بالسيوف عن قرب . وكانوا ذهبوا في ذلك الى اساليب حربية دقيقة كمثل عرض السفن على شكل يسمّى بالعدو ومثل التفاهم بين القواد باشارات يراها العدو ولا يفهمها بواسطة الرايات في النهار والقناديل في الليل

ولم تكن الدول الاوربية على شيء من الملاحة . فكان لشارلمان بعض مراكب بعيدة عن السفن الحربية حتى اذا كان القرن العاشر نهضت دولة ايطاليا فعهدت الى الروم في صناعة الاساطيل ثم استقدمت بعض العرب وفوضت اليهم قيادة السفن . ومن ذلك اليوم قيل لرب السفينة أميرال . وجرى في اسبانيا ما جرى في ايطاليا اذ عهد امراؤها الى العرب في العناية بأمر سفنهم . ثم حذا حذوهم سائر الدول الاوربية فمنهم من عوّل على الروم ومنهم عوّل على العرب ومنهم من عوّل على الايطاليين الى ان بلغت سفينة القذف في تلك الايام مبلغاً عظيماً

* * *

(المقتطف) وقد قال محمد بن منكلي وهو احد مقدمي الجند بمصر في دولة المماليك في كتابه « الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر » :— وكانوا (المسلمون) يرسلون النفط من انابيب تحمل في السفن وتعرف باليونانية باسم (سيفونيه) وتسمى عند العرب بالزراقات تنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن » . من مقال للاستاذ امين الخولي في مقتطف دسمبر ١٩٢٣ موضوعه « الاسلحة النارية في الجيوش الاسلامية » وجانب منه خاص بالاسلحة النارية المستعملة في السفن الحربية